فاطمة الفهري.. جعلت مالها علما

(التزمت أن لا تأخذ التراب وغيره من مـادة البنـاء إلا من نفس الأرض التي اشترتها دون غيرها فحفـرت كهوفـا في أعماقهـا وجعلتْ تسـتخرج الرمـل الأصـفر الجيـد والجص والحجر لتبني به تحريًا منها أن لا تـدخل شـبهة في تشـييد المسجد)

حسن عبد الوهاب في كتابه شهيرات التونسيات

جلس الأب يراجـع دفـاتره وبجـواره ابنتـه فاطمـة تجلس بجواره دون أن تتكلم حتى ابتدرها بالحديث

الأب: يا فاطمة... هل تعلمين ما أخافه على المال؟

فاطمة: أن يُسرق؟

الأب (يبتسم): لا... أن يبقى بلا معنى.

فاطمة: وكيف يكون للمال معنى؟

الأب: أن يخدم ما لا يموت...

فاطمة: كل شئ يموت يا أبي

الأب: العلم لايموت

حين تُذكر فاطمة الفِهري، تُقـدَّم غالبًـا في صـورة هادئـة: امـرأة صـالحة، ثريـة، أنفقت مالهـا على العلم، فأنشـأت جامع القرويين. صورة جميلة... لكنها ناقصـة. لأن الهـدوء الذي نراه في حياتها لم يكن غيابًا للصراع، بل كـان نتيجـة صراع طويل صامت، لا يصرخ، ولا يُكتب في كتب التاريخ. لم تبدأ فاطمة بالثراء، بـل بـ الخسـارة. فقـدت أباهـا، ثم زوجها، في زمن كانت فيه المرأة تُعرَّف غالبًا بمن يعولها. وفجأة وجدت نفسـها وحيـدة، لا لأن أحـدًا تركهـا، بـل لأن

المـوت سـبق الجميـع. هـذا النـوع من الصـراع لا يُحـدث ضجيجًا، لكنه يترك سؤالًا ثقيلًا في القلب: ماذا أفعل بكـل هذا المال... وأنا بلا سند؟

الثروة في حد ذاتها ليست فضلًا، بل امتحانًا أخلاقيًـا. كـان يمكن لفاطمـة أن تعيش في رفـاهٍ كامـل، بيـوت، خـدم، مكانة اجتماعية، وأن تُذكر – إن ذُكرت – كـ "امرأة صالحة ثريـة".لكن الصـراع الحقيقي كـان هنا فاختـارت الطريـق الأصعب: أن تجعل المال خادمًا للعلم، لا سيدًا عليها.

لم تكن فاطمـة تعيش في فـراغ، بـل في مجتمـعٍ لم يكن معتادًا أن تقود فيه امرأة مشروعًا علميًـا بهـذا الحجم. لم تقــف على منــبر، لم تخطب في النــاس، لم تــدخل في مواجهة مباشرة. كان صراعها أذكى من ذلك: أن تُنجــز بلا ضجيج، وأن تُؤسس بلا صدام، وأن تجعل العمل يتكلم بدلًا عنها. وهنا تكمن عبقريتها: لم تُحـاول أن تثبت أنهـا امـرأة قادرة، بل أثبتت أن العلم لا يسأل عن جنس من يخدمه.

صامت طوال فترة البناء.لأنهـا ارادت أن يكـون المشـروع عبادة لا صفقة، وأن يكون البناء نية قبل أن يكـون حجـرًا. كانت تخاف أن يفسد المال نُبل الفكرة، فأحاطته بالزهـد، وكأنها تقول: لن أسمح للثروة أن تسـرق إخلاصـي. أعظم صراع خاضته فاطمة الفهري هو أنها لم تسـعَ إلى الخلـود الشخصـي. لم تـترك خطبًـا،ولا كتبًـا باسـمها، ولا نقوشًـا تمجّـد ذاتهـا. تـركت شـيئًا أفضـل مؤسسـة تعيش، وعلمًـا يسـتمر، وأثـرًا لا يحتـاج إلى توقيـع. اختفت هي... وبقي الجـامع. وبقي العلم. وبقي السـؤال المـؤلم لنـا: كم من الثروات مرّت على التاريخ ولم تُنجب فاطمة؟

نجـد أختهـا مـريم أم القاسـم تمشـى على نفس الـدرب فانشات مسـجد عـرف باسـم مسـجد الانـدلس بعـد بنـاء

جامع القرويين وتحولت فاس الى مركز علمي ثم أصبح القرويين جامعة في دولة المرابطين وفي عهد بني مرين أصبح جامعة حقيقية وبنيت مدارس مثل فاس والمصباح

القاضي: كان يمكنكِ البناء قرب القصر.

فاطمة: العلم لا يُبنى في ظل السلطان... بل في ظل الناس.

عامل البناء (يحي): سيدتي... لماذا تُتعب أنفسنا؟ نستطيع جلب الحجر من الجبل.

فاطمة: لا حجر إلا من هذه الأرض.

يحي (متعجب): سيأخذ هذا وقتا طويلا

فاطمة (بهدوء حاسم): العمر يُقاس بما يبقى... لا بما يمر.

يحي: هل نكتب اسمكِ على الجدار؟

فاطمة: إن احتاج العلم اسمي... فلم أخلص له.

القاضي: أحقا ستصومين خلال فترة البناء

فاطمة: إن شاء الله

القاضي: أختي الغالية أم البنين نحن نتحدث عن سنوات طويلة بهذه الطريقة لن يتم البناء قبل 20 عاما

فاطمة: اذن أسالكم الدعاء واتقي الله يا يحي في عملك.. أنت ايها تقول أم البنين

القاضي: الناس من فعلت لكثرة ما تقدميه لهم من خير

فاطمة: الفضل وهذا المسجد مسجد القرويين سيبقي لهم ولمن بعدهم ما شاء الله

يحي: هذا ليس بناء بل نور سيبقي للناس وللعلم ما شاء الله وقدر له

تلتفت فاطمة الى اختها مريم أم القاسم عندما قالت

- سأبني مسجد أنا ايضا ولكن ساسميه الاندلس

القاضي - سيكون اذن سباقا في الخير وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

وُلدت فاطمة الفِهري في مدينة القيروان، إحدى أعظم مدن العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. كانت القيروان آنذاك: عاصمة إقليم إفريقية مركزًا رئيسيًا للفقه المالكي محطة تجارية بين المشرق والمغرب والأندلس أسسها القائد عقبة بن نافع الفهري سنة 50هـ، وسرعان ما تحولت من ثغر عسكري إلى حاضرة علمية كبرى، خاصة بعد بناء جامع عقبة، الذي أصبح جامعة بالمعنى التقليدي الإسلامي.

ازدهرت في القيروان: حلقات الحديث مدارس الفقه علوم اللغة الحساب والفلك وكان العلماء يتوافدون عليها من المشرق والأندلس، ما جعلها بيئة مثالية لنشأة عقلٍ يقدّر العلم.

تنتمي فاطمة إلى أسرة الفِهريين، وهم عرب من بني فِهر، استقروا في إفريقية، وعُرفوا بالتجارة والاستقامة. كان والدها محمد بن عبد الله الفِهري تاجرًا واسع الثراء، وكان شديد التعلق بالعلم والعلماء.

بيت الفِهري كان مدرسة شملت (حفظ القرآن - تعلّم مبادئ الفقه - اللغة العربية - الحساب الضروري للتجارة) نشأت فاطمة وأختها مريم الفِهري وهما تعلمان أن العلم عبادة، وأن المال أمانة.

تـوفي والـد فاطمـة بعـد اسـتقرار الأسـرة في فـاس، ثم لحقت به والدتها، فآلت ثروة ضـخمة إلى فاطمـة وأختهـا. في مجتمعٍ مضطرب، كان المال قوة سياسية واجتماعية، لكن فاطمة رأت فيه تكليفًا لا تشريفًا.

طـرحت فاطمـة سـؤالًا جوهريًـا: كيـف أُحـوّل المـال إلى صدقة جارية لا تنقطع؟ وكان الجواب: العلم.

اختارت فاطمة قطعة أرض في عدوة القيروانـيين، قريبـة من العامـة، بعيـدة عن قصـور الحكم. هـذا الاختيـار كـان سياسيًا بقدر ما كان دينيًا.

اشترطت أن يكون البناء من مالها الخاص

راقبت شراء الأرض بنفسها

نذرت الصيام طوال مدة البناء وكانت 18 عاما

سُمّي المسـجد جـامع القـرويين نسـبة إلى القـيروان مـرّ القرويين بأربع مراحل:

1. مسجد للعبادة

2. مركز لحلقات العلم

3. معهد لتدريس العلوم

تخرج من القرويين (ابن خلـدون - ابن رشـد - موسـى بن ميمون - لسان الـدين بن الخطيب - جـيربرت الأورليـاني) انتقل نموذج القرويين إلى أوروبا عبر الأندلس.

صنعت زمنًا أطول من عمرها

لم تـترك فاطمـة الفهـري كتابًـا، لكنهـا تـركت جامعـة. لم تخُض حربًا، لكنها ربحت معركـة الحضـارة. إن كـان لكـل سيف صدأ، فإن للعلم خلودًا.

عمدت فاطمة الفهرية إلى مسجد القرويين بعـد احتراقـه فأعادت بناءه مما ورثته من أبيها في عهد دولـة الأدارسـة في رمضـان من سـنة 245هــ، وضـاعفت حجمـه بشـراء الحقل المحيط به من رجل من هوارة، وضمت أرضـه إلى المسجد، وبذلت مالاً جسـيماً برغبـة صـادقة حـتى اكتمـل بناؤه في صورة بهية وحلية رصينة.

. وتتواتر الروايات التاريخية في ذكر صـوم فاطمـة طـوال فترة بناء المسـجد الـتي امتـدتْ إلى سـنة 263 هجـري / 876م (حـوالي 18 سـنة). وتـوفيت فاطمـة الفهريـة بعـد ذلك بسنوات قليلة، بين عامي 878 و880م.

وممَّا ترويـه كتب التـاريخ عن فاطمـة انهـا عقـدت العـزم على ألا تأخــذ ترابًــا أو مــوادَّ بنــاء من غــير الأرض الــتي اشـترتها بحُـرِّ مالهـا، وطلبت من عمَّال البنـاء أن يحفـروا حتى أعماق الأرض يستخرجون من أعماقها الرمل الأصفر الجديد والأحجار والجص ليستخدموه في البناء. بدأ الحفــر في صحنه لإنشاء بئر من أجل شرب البنَّائين، ولاستخدامه في أعمال البناء. ثم عمَدَت بعد ذلك إلى حفر بناء أساس وجدران المسجد وأشرفت بنفسـها عليـه، فجـاء المسـجد فسيحَ الأرجاء محكم البناء وكأن فاطمة عالمة بأمور البناء وأصول التشييد، لما اتصفت به من مهارة؛ فبـدا المسـجد في أتم رونق، وأزهى صورة، وأجمل حال وزخرف. وكـان ذلك أول رمضان سنة 245 من الهجرة.

أم البنين

وفسر البعض إطلاق هذا اللقب على فاطمة الفهريـة بأنـه يرجـع إلى أنهـا عُـرفت بعطائهـا وإنفاقهـا على المسـاكين وطلبة العلم من مالها الذي ورثته.

ذكر ابن أبي زرع أن فاطمة الفهرية حينما كانت تنوي بناء الجـامع، اختـارت أرضـاً في المكـان الـذي يسـكن فيـه القرويون، "وكانت أرضاً بيضاء، يُعمل بهـا أصـناف الجِص، وبها أيضاً أصـناف من الشـجر". والجِص هـو الـذي يُعـرف اليوم بالجِبس المستخدم في مواد البناء.

وكان صاحب الأرض رجلاً من قبيلـة هـوارة، حازهـا والـده حين بُنيت تلك المدينة، فاشترتها فاطمة منه بمالهـا الـذي ورثته والذي "ليس فيـه شـبهة ولم يتغـير بـبيع أو شـراء"، وشرعت في حفر أساسه في الأول من شهر رمضان عام 245هـ/859م، أي أنهـا في ذلـك الـوقت كـانت على مشارف الستينيات من عمرها.

وأوضح مؤرخ المرينيين أن فاطمة أمرت بحفر بئر وسـط تلـك الأرض الـتي كـانت تعـد منجمـاً، حيث صُـنِعت فيهـا كهـوف اسـتُخرج منهـا الـتراب والحجـر والرمـل الأصـفر الطيب، فبنت بها الجامع "ولم تُدخل فيه من تُراب غيره"، أي أنهـا اقتصـرت في بنائـه على مـواد مسـتخرجة من الأرض التي اشترتها.

وبحسب موقع الأكاديمية العالميـة وموقـع ريسـيرش غيت الأوروبي الذي يتشارك فيه العلماء الأبحاث العلميـة، فـإن جامعـة القـرويين هي أقـدم جامعـة في العـالم، متقدمـة بذلك على تأسيس جامعتي بولونيا في إيطاليا، وأكسفورد في بريطانيا. كما وثقت موسوعة غينيس للأرقام القياسية جامعة القرويين كأقدم جامعة في العالم.

واليوم وبعد نحو ألف ومئة وخمسين عاماً، لا تزال فاطمة الفهريـة مصـدر إلهـام للنسـاء في العـالم العـربي؛ فعلى اسمها أطلقت مؤسسة للبحـوث والدراسـات "مفـاد" في المغـرب، المعنيـة بـالبحث العلمي، لاسـيما في العلـوم

الإنسانية والاجتماعية. كما أطلق اسمها على جائزة خاصة بالنسـاء المنتميـات لـدول البحـر المتوسـط، ممن حققن إنجـازات في مجـال التكـوين (التعليم) والبحث العلمي، وفي مجالات الفن والثقافة والسياسـة والهندسـة والآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

أمام تمثال فاطمة الفهرية

وقفت ريتال فتاة في الخامسة عشر أمـام تمثـال فاطمـة الفهرية والذي يمثلها وهي تحمل لفافة من الورق وسألت نفسها

- هل تقرأ كتابا

تفاجئت بسـيدة يبـدو عليهـا العلم والوقـار تقـف بجوارهـا وردت عليها

- لأنها تصماميم المسجد كانت فاطمـة خبـيرة بـأمور البناء والتجارة بالاضافة الى علوم الدين
- أحسدها كل شئ كان لديها قرأت أنها كانت غنية جدا
- المال ليس الثروة العلم هـو الـثروة وهـذا مـا فعلتـه بالمال حولته الى علم وبارك الله فيـه فأصـبح أشـهر واقدم جامعة على الأرض
- بصـراحة لـو كـان معي كـل هـذا المـال لاشـتريت وسافرت ومرحت كما أشاء
- الـدنيا متـاع لايوجـد في الـدنيا سـعادة مطلقـة على سـبيل المثـال جـربي أن تصـومي وكلمـا ازداد بـك الجوع ستشعرين أن الطعام متعة ولذة لاتنتهي ولكن بمجرد أن تنالي بعضا منهم تنتهى السعادة.. السعادة الحقيقيـة في الجنـة وخـير مـا تتركيـه في الـدنيا هـو العلم وطبعا لاتنسـي نصـيبك من الـدنيا احترسـي أن تكون مثل قارون

- اعـوذ باللـه لا سـاكون مثـل فاطمـة الفهريـة ولكـني لاامتلك ثروتها
- هل قرأت كتابا من قبل
- الكثـير أنـا أحب القـراءة من الكتب وأيضـا الانـترنت بشراهة
- ممتاز وماذا فعلتي بكل هذه المعرفة
- لا أفهم
- لماذا لاتنشريها تحدثي الناس عنها سيكون علما نافعا يبقى لك خيرا في الدنيا والآخرة وحدثيهم عن جامعة القرويين وفاطمة الفهرية وما فعلته بمالها
- لاتوجد معلومات كثيرة عنها فقط وفاة أهلهـا ومالهـا والمسجد وصومها 18 سنة خلال فـترة البنـاء وايضـا أختها مريم
- صـحيح تعـرض المسـجد لحريـق كبـير عـام 1323م قضـى على كـل الوثـائق المحفوظـة فيـه وضـاعت فاطمـــة الفهريـــة من التـــاريخ ولكن ليس المســـجد وليس العلم وهذا ما ارادته ونسال اللـه الاخلاص في كل عمل
- أنت ايضـا قـرأت عنهـا بالمناسـبة اسـمي ريتـال من مصر وجئت لزيارة الاردن والمتحف بالذات
- وأنا فاطمة من المغرب ولكن هذا التمثال لايشـــبهني على الاطلاق

نظــرت ريتــال الى التمثــال مندهشــة ثم عــادت لتنظــر للسيدة بجواراهـا ولكنهـا اختفت والتفت حولهـا وسـخرت من نفسها وهمست

- يبدو أني روح فاطمة الفهرية تحوم في المكان مثلما يحوم ما تركتـه من علم في كـل مكـان.. صـحيح مـا قالته العلم الثروة الحقيقية والمال قوة له

- (فكأنما نبهت عزائم الملوك بعدها وهذا فضل يؤتيه لمن يشاء من عباده الصالحين فسبحانه وتعالى اذا اراد لامه الرقي والرفع واذن لها بالسعادة الغامرة ايقظ من بين أفرادها رجالا ونساء ايقظ فيهم وجدانا شريفا وشعورا عاليا يدفعهم للقيام بصالح الاعمال وأشرفها ومثل ما قدمت فاطمة بن محمد الفهرية هذا العمل سبيلا)
- **بن خلدون في وصف فاطمة الفهرية**

تمت